الباب الثانى

سيكولوجية الابادة

الجذور السيكولوجية لجرائم الابادة

شهدت البشرية على مرّ التاريخ غزوات وحروب وصراعات دموية بين قوى متصارعة وبين إمبراطوريات كانت تسعى كل منها الى التوسع وإخضاع الشعوب والممالك لنفوذها فاكتسحت جيوش أسكندر الأكبر كل البلدان والأمصار الممتدة مابين ماسادونيا (مقدونيا) والهند وكانت تفني وتهلك كل من يواجهها أو يعرقل مسيرها وغزت حشود جنكيزخان وتيمورلنك وهولاكو معظم بلدان آسيا وهم يقتلون وينهبون ويحرقون ويعيثون في الأرض دماراً وخرابا وفي أوروبا المسيحية وتحت ظل الكنيسة أبيدت الملايين من سكان أمريكا الأصليين من قبل الأسبان عقب إكتشاف كريستوفر كولومبس للقارة الجديدة، ثم أعقبهم الإنجليز في إكمال مهمة الإبادة بكل الوسائل.

واتبعت القوى الإستعمارية نفس السياسات اللاإنسانية ضد السكان الأصليين في المكسيك وبقية دول أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا واثناء المد الإستعماري الأوروبي، أخضعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بأقسى أنواع العنف والقسوة لسيطرة القوى الاستعمارية، التي تنافست فيما بينها لنهب الثروات الطبيعية وراح الملايين من البشر ضحايا تلك الغزوات والحروب التي كانت تشعلها نزوات وميول وأطماع الأباطرة والملوك والحكام وقادة الجيوش وارتكبت جرائم شنيعة ومجازر

جماعية استهدفت بعضها الإبادة الكاملة لمجموعات أو طوائف دينية أو مذهبية وشهد مطلع القرن العشرين إبادة وفي المانيا قامت نازية هتلر فى الفترة بين ١٩٣٨-١٩٤٥ بمذابح الهولوكوست ضد اليهود والسلاف والشيوعيون والغجر والمثليين جنسياً والأسرى الروس،وسنة ١٩٣٢-١٩٣٣ قام ستالين بإبادة سبعة ملايين من الأوكرانيين بتجويعهم حتى الموت ورغم صدور ميثاق الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨ الذي هدف إلى منع تكرار تلك الجرائم ضد الإنسان، لكن جرائم بشعة ارتكبت في النصف الثاني من القرن قبل الماضي من قبل الخمير الحمر إستهدفت الإبادة الجماعية للسكان في كمبوديا وقام النظام في العراق بمذابح الأنفال مستهدفاً إبادة الكرد في كردستان وفي أفريقيا جرت مذابح جماعية من قبل مقاتلي الهوتو ضد السكان من قبائل التوتسي في رواندا ولازال إرتكاب المذابح الجماعية مستمر حتى اليوم.

من المسلم به أنه ليس بإمكان فرد متسلط أو مجموعة معينة من الأفراد قتل الملايين أو حتى المئات من البشر، وتدمير المدن والقرى كاملة، دون إشراك أعداد كبيرة من الناس وتوريطهم في تنفيذ الأوامر والقيام بإرتكاب جرائم قتل أو إبادة جماعية دون وعي أو إدراك منهم لما خطط له أصحاب النفوذ والسلطة الذين تلقى الأوامر منهم فلا نيرون أوالحجاج أو تيمورلنك أو هولاكو، ولا هتلر أوموسوليني أو صدام حسن أو ميلوسوفيتش أو الزعيم الكمبودي بولبوت أو رئيس حكومة رواندا

هابري مانا، نفذوا جرائمهم الكبرى بأنفسهم أو من قبل أفراد حاشيتهم أو ممن حولهم من رجال السلطة.

وعند التمعن في الأسباب التي تقف وراء إرتكاب تلك الجرائم التي تختلف طبيعة كل واحدة منها عن الأخرى طبقاً للعصر الذي حدثت فيه والظروف السياسية والإجتماعية القائمة وقت حدوثها وطبيعة الأنظمة واللاعبين الكبار الذين قاموا بتنفيذها، يتضح أن هناك بجانب العوامل السياسية والإجتماعية والإقتصادية مجموعة عوامل وأبعاد سيكولوجية لعبت أدوراً رئيسة في حدوثها، وتُعدّ عوامل مشتركة في إرتكاب جميع جرائم الإبادة الجماعية عبر العصور وفي كل المجتمعات والثقافات وسنحاول هنا تسليط الضوء على الجوانب الاساسية منها.

سيكولوجية السلطة الإستبدادية

تُعدّ السلطة في الأنظمة الشمولية التوتاليتارية والدكتاتورية من أكثر أنواع السلطة إستبداداً وبطشاً بالمعارضين لها، حيث تنتهج أشد أساليب العنف والإستبداد لضمان استمرارها وتحاول إخضاع الناس لطاعتها أو كسب ولائهم بكافة الوسائل حيث ان الأفراد يتأثرون بمجالات السلطة ويتحدون معها، إذ يؤكد عالم النفس الألماني كيورت ليفين ١٨٩٠ - ١٩٤٧مؤسس نظرية المجال النفسي،على أن الأفراد يختلفون فيما بينهم باختلاف المجال الذى يتواجدون فيه، أي ان السلوك وظيفة المجال الموجود وقت حدوث السلوك فالأفراد الذين يعملون مع السلطة

التوليتارية أو من هم ضمن حلقاتها الرئيسية، يتطبعون بصفات خاصة، وتؤثر مجالات السلطة في إحداث تغييرات فى سمات شخصياتهم خاصة في الأشخاص الضعفاء الذين يتسمون بسمات الشخصية المتقلبة والإنتهازية.

وللسلطة الإستبدادية خصائص وسمات سيكولوجية تتميز بها عن غيرها مثل الخوف والحذر وفقدان الثقة فى الجماهير، واللجوء إلى الخداع والمكر واستخدام أشكال العنف ضد المناوئين لها، وتضييق الخناق على كل من لايظهر الولاء لها وبالتالي عزلهم بعيداً عن دائرة النفوذ والتأثير وكذلك تميل السلطة المستبدة إلى الإنتقام من كل من يحاول النيل منها أو يهدد وجودها وتلجأ مثل هذه السلطة إلى إدعاء تطبيق العدالة والحرية،وتسعى في نفس الوقت إلى إخفاء مظاهر أنانيتها وحرصها على المصالح الذاتية ويؤدي مثل هذا السلوك للسلطة إلى ظهور الإزدواج لديها.

وعلى عكس الأنظمة الديمقراطية، تلجأ السلطة في الأنظمة الشمولية، إلى إستعمال أقسى أنواع العنف والقسوة ضد أفراد وشرائح المجتمع لإحكام قبضتها وكثيراً ما تقوم بإصدار قرارات وقوانين تعسفية وفرض الطوارئ ومنح صلاحيات واسعة لأجهزتها القمعية وتعمل على خلق جدار من العزلة بينها وبين الجماهير وتزداد الفجوة بينهما التي غالباً ما تكون نفسية أكثر من كونها مادية إتساعاً إلى أن تنتهي بظهور حالة من الإغتراب بين السلطة والجماهير والسلطة الشمولية لاتثق فى الجماهير

لأنها تدرك انها لم تنتخب وإنما فرضت نفسها عنوة على الجماهير، لذا فإنها تعيش هاجس الخوف والتهديد بإستمرار وتتحسب لكل حركة أو بادرة من أي فرد أو فئة من شأنها إثارة الجماهير، وتواجهها بكل بطش وإرهاب لبث الرعب لدى الآخرين وتلجأ أحياناً كثيرة إلى إستخدام الأساليب النفسية لترويعهم أو إلى وسائل الترغيب لكسب ولاءهم وتلجأ أجهزة السلطة الشمولية ومسؤوليها إلى التمويه والخداع والمكر والتحايل وتشديد المراقبة والتجسس على الجماهير بدلاً من الصراحة والدخول في حوار معهم، بسبب التزمت الفكري الذي يسيطر عليها حيث لا تعترف بالرأي الآخر ولا تقيم وزناً للآخرين، بل إن الإقصاء وإلغاء الآخر هو أحد أهم سماتها.

يقول موسكوفيسي ١٩٨٤، كسب الحزب النازي شعبية كبيرة لدى الألمان، نتيجة إستمراهم في تكرار خطاباتهم وشعاراتهم لمدة عشرون سنة تقريباً وعندما تغيرت الحالة الإجتماعية وتلائمت أكثر وتوافقت مع خطابهم الثابت، أصبح الناس أكثر ميلاً لقبول إدعاءاتهم ولم يتردد النازيون في الكف عن هذا الاسلوب أبداً الى أن بدوا للألمان وكأنهم على صواب أما لاتاني فإنه على وفق نظرية تأثير الدينامية الإجتماعية يرى، أن التأثير الذي يخلفه الآخرون على إتجاهات الشخص، وإعتقاداته، وسلوكه، يتقرر بواسطة السلطة والموقع والخبرة ومدى القرب المادي أو الإجتماعي وعدد من مصادر التأثير وبمرورالوقت،فإن الإعتقادات تنتشر وتصبح أكثر وضوحاً وقبولاً لدى الجماهير وتدرك السلطة

المستبدة سيكولوجية الجماهير جيداً وتعي أن الجماهير ستثور فى وجهها متى توافرت الظروف المناسبة وحينها يكون من الصعب على أجهزة السلطة الوقوف فى وجهها لذلك فإن السلطة المستبدة تلجأ إلى وسائل أخرى لتشويه الحقائق وإظهار نفسها بمظاهر مغايرة للواقع ولتبرير أخطاءها والتقليل من شأن الإنتكاسات والهزائم التي تمنى بها، فضلاً عن الأجهزة القمعية التي تمتلكها وتسخر لأجل هذه الأهداف،آلتها الإعلامية التي تقوم بغسل الأدمغة وتخدير عقول الجماهير.

ومن المعروف أن الأنظمة التوتاليتارية تستخدم الإعلام في تزييف وعي الجماهير وإقناعهم بالوقوف إلى جانب النظام وتؤجج نار العداوة لديهم ضد أعداء السلطة ويلجأ الحكام عادة الى إستغلال العوامل السيكولوجية الإجتماعية لتنفيذ مخططاتهم، فإذا ما نجحوا في ذلك فإنها ستصبح متناغمة مع القيم الإجتماعية وعند النظر الى إعلام وأدبيات النخبة الحاكمة في الأنظمة الإستبدادية التي ارتكبت إبادة جماعية، نرى أنها تصور بوضوح تام ضحايا جرائمها، كمتمردين وتصفهم ليس فقط بصفات الحقارة والرذيلة وإنما تعتبرهم أشراراً وتضعهم في مرتبة الأعداء فكان الإعلام القومي الصربي مثلاً، يحرّض على إثارة الكراهية العرقية عن طريق تزييف الأحدث التاريخية والراهنة لبث حالة الخوف وزرع روح العداء لدى الصرب فيما كان يتم تحذير طلاب المدارس من خطورة المسلمين ويلقنونهم دروساً عن معارك قديمة جرت في كوسوفو في القرن الرابع عشر أما النظام البائد في العراق فقد دأب على إعتبار

الكرد بمثابة الكفار الذي دعا الاسلام إلى القضاء عليهم واعتبار ممتلكاتهم وحتى أطفالهم ونساءهم غنائم حرب، وفق ما جاء في سورة الانفال فضلاً عن إطلاق مسميات لتشويه حقائق الأوضاع ونعت الكرد بسليلي الخيانة وعملاء إيران وكلاب يجب سحق رؤوسهم وغيرها من الصفات البذيئة لتعبئة الأجواء وإيهام العراقيين بمشروعية سياساتهم وتسيطر النظرة الدونية على السلطة الشمولية تجاه أعدائها ومناوئيها وإلصاق الدونية لاتمت بصلة بالجوانب العسكرية أو الإقتصادية، بل تقوم على أساس فكري وأيديولوجي وبتكريس النظرة الدونية يموت الضمير والواعز الأخلاقي ويغيب الشعور الإنساني ويتم ترسيخ العنصرية وإبادة الشعوب، ورغم ذلك فأن قادة السلطة الشمولية يشعرون أنهم يؤدون عملاً حضارياً وهذه النظرة الدونية كانت نظرة هتلر وقادة الحزب النازي تجاه اليهود والغجر والسلاف والشواذ جنسياً في محرقة الهولوكوست، وكانت هي نظرة صدام حسين وقادة البعث والعروبيون تجاه الكرد في مذابح الأنفال، وكانت نظرة ميلوسوفيتش والقوميين الصرب تجاه البوسنيين والكروات، وزعماء الهوتو تجاه المواطنين من قبائل التوتسي في رواندا.

يعدّ نظام صدام حسين البائد الذي خطط لإبادة الكرد وتدمير البنية الاقتصادية والنسق الإيكولوجي في كردستان، نموذجاً صارخاً للسلطة الشمولية وتميز بكونه من أشد الأنظمة الشمولية عنفاً ودموية، وكان يمارس أبشع أنواع القمع والإستبداد ضد الإنسان العادي ناهيك عن

السياسي المعارض وكثيراً ما كان يلجأ الى تلك الممارسات بهدف الترويع فقط، لكي لايدر في خلد أحد ما، أية أفكار تعارض سياسة النظام مثل القرارات التعسفية الغريبة كقطع اللسان والآذان ووشم الجباه الذي أصدرها النظام أثناء الحرب مع إيران وشملت ممارسات النظام كذلك:

- إتباع سياسة التوريط والإيقاع في شرك دائرة المسؤولية والإنتماء للنظام، حيث كان أحد الأهداف الرئيسة في منح الأوسمة والأنواط ومن ثم الإعلان عن ذلك على الملأ عن طريق وسائل الاعلام، هو تحسس الفرد الذي يكافأ بأنه أصبح جزءاً من النظام ومقرباً ومتعاوناً وشريكاً في تنفيذ سياسات السلطة وممارساتها وكان هذا من شأنه أن يجعل منه فرداً ممسوخاً واقعاً في أحابيل السلطة ولامفر منه الاّ الدفاع عنها لأن مصيره أرتبط بمصير السلطة.

- القيام بحملات إعدام علنية أمام الجمهور في الساحات العامة والملاعب الرياضية وإجبار الناس على التصفيق والنساء على إطلاق الزغاريد وكان النظام يقوم بتشجيع الناس بمنحهم أنواط الشجاعة للإبلاغ عن أبناءهم أو أخوانهم المناهضين للسلطة الحاكمة أو الرافضين الإلتحاق بالخدمة العسكرية والذهاب الى جبهات الحرب، وكان لذلك دور كبير في تفسّخ القيم الإجتماعية.

- دأبت أجهزة النظام الإعلامية على عرض المشاهد المروعة للمعارك الحربية ولأشلاء القتلى من الجنود الإيرانيين أثناء الحرب مع إيران في برامج تلفزيونية خاصة عند المساء وفي فترات برامج الأطفال على

الأغلب والهدف كان واضحاً في زرع الروح العدوانية لدى الناس خاصة الأطفال والمراهقين منهم، لخلق جيل متشرب بأفكار شوفينية وعدوانية.
ـ شجع النظام أفراد الجيش على النهب والسلب عند الدخول إلى المدن الإيرانية وأثناء غزوها للكويت، حيث كانت لهذه الممارسات التي زرعتها السلطة إنعكاسات على جيل كامل من العراقيين وبرزت إفرازاتها أثناء سقوط النظام في عمليات النهب والسلب التي طالت كل المؤسسات والمرافق الحكومية بإستثناء وزارة النفط التي كانت الوزارة الوحيدة التي وفرت القوات الأمريكية الحماية لها لمصلحتها الخاصة.

سيكولوجية شخصية الطاغية

لاشك إن لقادة الشعوب وحكام الدول أدواراً كبيرة في ما يجري من أحداث في بلدانهم وقد أظهرت الدراسات إن القادة الذين تسببوا في حدوث الحروب والمآسي لشعوبهم أو إرتكبوا جرائم إبادة جماعية سواءاً ضد شعوب بلدانهم أو شعوب البلدان الأخرى، كانوا يعانون من خلل وإضطرابات في شخصيتهم وتؤكد تلك الدراسات وجود أنماط شخصية معينة لدى هؤلاء القادة الذين يميلون إلى السلوك الإستبدادى. وفي هذا السياق يشير كوالسكي ٢٠٠١ إلى ثلاثة أنواع من الشخصيات لفتت إنتباه الباحثين لإخضاعها للتجربة وهذه الأنواع هي:

النرجسية – الميكافيللية- السيكوباثية ورغم الإختلاف في منشأ تلك الأنواع الثلاثة التي يطلق عليها باولهوس ووليم، الثالوث المظلم، فأن تلك الشخصيات تشترك فى عدة مميزات فكل الأنواع الثلاثة تتصف

بخاصية الحقد الإجتماعي مع نزعات سلوكية نحو الإرتقاء بالذات، والبرود العاطفي، والإزدواج، والعدوانية وبرهنت التطورات الأخيرة للمقاييس غير الكلينيكية لكل المتغييرات الثلاثة على وجود علاقة مترابطة بين الميكافيللية والسيكوباتية، والنرجسية بالسيكوباتية، والميكافيللية بالنرجسية وفيما يلي تعريف موجز لأنماط الشخصية الثلاثة:

الشخصية النرجسية

إن الفرد ذو الشخصية النرجسية هو من يكون لديه شعور مفرط بحب الذات والإعجاب الشديد بنفسه وبمواهبه وقدراته، ويتصور أنه هو الأفضل في كل شئ وهو المبدع والمبتكر والفنان ويتوقع من الناس تقديره وكَيل الثناء والمدح له وإبداء الإعجاب بشخصيته وفق ما يتصوره هو عن نفسه.

والميكافيللي هو ذلك الشخص الذي له مواصفات تلك الشخصية التي أوصى بها المؤلف الإيطالي نيكولاى ميكيافيللي ١٤٦٩ – ١٥٢٧وحدد سماته في كتاب الأمير ومثل هذا الفرد يحاول تحقيق أهدافه بكل الوسائل وشعاره هو الغاية تبرر الوسيلة أي أن الشخص الميكيافيللي يهمه الوصول إلى الغاية أو الهدف الذي يريده مهما بلغ الثمن.

والسيكوباتي هو الفرد الذي لا يراعي النظام والقوانين،ولايهمه المصلحة العامة ويتمتع في الخروج على كل العادات والتقاليد والقوانين

المرعية ومثل هذا الشخص لايهمه الآ نفسه وإشباع أهواءه ورغباته إن القادة التوتاليتاريين من أمثال هتلر في المانيا، موسوليني في إيطاليا، فرانكو في أسبانيا، ستالين في روسيا، بولبوت في كمبوديا، بينوشيه في شيللي، صدام حسين في العراق، ميلوسوفيتش في صربيا، وغيرهم من القادة في بلدان أخرى من العالم، يتميزون بوجود صفات الشخصيات الثلاث السابقة ورغم إختلاف الثقافات والبيئة الإجتماعية لبلدانهم فإنهم لم يكتفوا بالسيطرة على أعلى مواقع السلطة المدنية والعسكرية والحزبية ومسك زمام كل الأمور والشؤون والقضايا، وإنما كانوا يتحكمون في سن القوانين والتشريعات التي غالباً ما كانت تأتي وفق أهواءهم ونزواتهم وكانوا هم لا غيرهم،أصحاب العظمة والفخامة وصانعىا الأحداث والمعجزات ويمثلون الله في الأرض ولهم الأمر والنهي وليس للجماهير الآ الطاعة والخضوع لسلطانهم.

ويرى رومل ١٩٩٦ أنه ليست مصادفة أن نرى عمليات الإبادة الجماعية والحروب في القرن العشرين، حدثت في الدول غير الديمقراطية وان أحد أهم مميزات الدول التي أرتكبت فيها إبادة جماعية هي وجود قادة لأنظمة وحكومات توتاليتارية ان تأثير هؤلاء القادة يكون في تحوّل أو تعظيم المقومات القائمة ضمن المجتمع إلى ثقافة عملاقة كما يطلق عليها ستاوب ١٩٨٩، فمثل هذه الثقافات غالباً ماتكون لها تاريخ من الخضوع للدولة والحكام التوتاليتاريين فضلاً عن ضعف روح

التسامح مع التنوع الثقافي ويلعب القادة التوتاليتاريين دوراً كبيراً في تحريك الثقافة نحو العنف الجماعي وغالباً ما يتم ذلك بهدف تقوية السلطة وتمركزها وإنهاء المعارضة وتمتين الإقتصاد لمصالح ذاتية وخلق بنية تحتية وأيديولوجية هدامة.

سيكولوجية العدوان:

أظهرت الدراسات الحديثة أن اللاوعي الفرويدي لا يعطي تفسيراً مقنعاً لأشكال العنف المتطرفة عند الإنسان على المستويين الفردي والجماعي ويبدو أن جذور ظاهرة العنف تصل إلى ما هو أعمق من مستوى فترة الولادة الأولى بينما كشفت البحوث الخاصة بالوعي، مصادر مهمة أخرى للعنف والعدوان ويمثل العدوان ظاهرة سلوكية منتشرة يمارسها الأفراد والدول والمجتمعات على السواء وطال العدوان حتى الطبيعة، حيث لم تفلت من العدوان المتمثل بإبادة بعض عناصرها وتلويث البعض الآخر إن العدوان مفهوم غامض الى حد ما لتداخله مع مفاهيم سايكولوجية أخرى كالعدائية والعنف والارهاب والعدوان في نظر باندورا هو السلوك الذي يؤدي الى إحداث الضرر الشخصي أو تدمير ممتلكات وهناك فرق بين العدوان والعدائية والتي يقصد بها الميول التي تحرك العدوان كالحقد والكراهية والغضب أما العنف فهو استعمال القوة أو التهديد بأستعمالها، وهو نهاية مطاف السلوك العدواني.

يربط دولارد وميللر ١٩٣٩ بين الإحباط والسلوك العدواني ويعتقد

بأن السلوك العدواني بصوره المختلفة يرجع الى أنواع من الإحباطات. إن العوامل التي تؤدي الى تعقيد الظروف الحياتية لدى المجتمعات التي لم تعتد مثل هذه الظروف تشعرهم بالإحباط، وتمثل أكبر تهديد بإنتشار مظاهر العنف والعدوان فقد ارتبطت معظم عمليات الإبادة الجماعية في القرن العشرين بأزمات عدم الإستقرار ومشاعر الإحباط، التي من شأنها تهيئة الأرضية لتغييرات في بنية تلك المجتمعات ونتيجة الحروب،ظهرت الى الوجود أزمات إقتصادية وسياسية و إفرازات نفسية وإجتماعية في السنوات التي سبقت أو صاحبت جرائم الابادة الجماعية الانفة الذكر.

إن العدوان مرفوض في كثير من أشكاله لدى المجتمعات ولكنه يكون مقبولاً عندما يكون الهدف منه الحفاظ على الذات وتحقيق الوجود والحرية والبقاء لذا يلجأ كثير من الناس الى إخفاء السلوك والنزعات العدوانية السلبية تحت شعارات وأهداف إيجابية فعلى سبيل المثال، دعي المشاركين في الحرب الصليبية الى التضحية بحياتهم من أجل المسيح لإسترجاع الأرض المقدسة من أتباع محمد وإستغل هتلر الحوافز المثيودولوجية في التفوق للعنصر الآري وفي إستعماله الصليب المعقوف الذي يمثل الرمز الآري القديم وإعتبر النازيون أنفسهم ومن ينتمي الى العنصر الآري متفوقون وإن الأعراق الأخرى كالسلاف واليهود والغجر يلوثون المانيا وكانوا يشبهون اليهود بالفئران التي تنشر الطاعون وفي الامبراطورية العثمانية أعتبر الأرمن خطراً داخلياً وعملاء للقوات الروسية والأرمنية المحتلة. و قادة الهوتو في رواندا

إعتبروا قبائل الهوتو متفوقين على التوتسي حيث كانوا يصفون التوتسيين بالصراصير أثناء الإبادة الجماعية التي جرت لهم عام ١٩٩٤.

وإستند صدام في مذابح الأنفال على سورة الأنفال لتبرير أهدافه العدوانية والقيام بجرائمه في تلك العمليات ضد الأبرياء في كردستان الذين جعلهم في مقام الكفار والمشركين عند الإسلام، وكان رموز النظام البعثي ينعتون الكورد بشتى أنواع الصفات البذيئة ويصرحون علناً بسحق رؤوسهم. وهكذا هي النزعات القومية المبنية على إيديولوجية عنصرية التي تحمل في جوهرها التمييز والتحييز العرقي والايمان بالتفوق القومي،ويعدّ ذلك من الأسباب الرئيسة للعدوان وإرتكاب جرائم الإبادة الجماعية.

إن اكثر جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين أرتكبت من قبل الدول التي لها تاريخ حافل بالعنف والنزاعات العدوانية و هذا يدل على أن السلوك العدواني لايقتصر على الأفراد وإنما يمكن أن يشمل كذلك، الدول والشعوب ففي غياب التفاهم وتبادل الأفكار وقبول الطرف الاخر، فأن الدول ذات التوجه العدواني تفترض بأن جماعة ما تشكل خطراً ويتوقعون منها الكراهية والعدوان، وبما أن العدوانية تطغى على سلوك قادتها، فأنهم يلجأون الى إبادة مصادر الخطر الذي يهدد مصيرهم وكيانهم دون إكتراث لنتائج جرائمهم.

سيكولوجية الطاعة

هناك أسئلة كثيرة تتبادر الى الذهن وتفرض نفسها عند التفكير في الأسباب التي تؤدي الى حدوث الجرائم التي تستهدف إبادة مجاميع كبيرة من البشر: ماهي دواعي إنصياع الآلاف من الناس ممن ليسوا فى مواقع السلطة، لرغبات والميول العدوانية لأصحاب القرارات والاوامر في المواقع العليا للسلطة، الذين يخلقون الظروف والأجواء السياسية والنفسية لتنفيذ الجرائم الكبرى؟ وماهي الدواعي وراء الرضوخ والطاعة العمياء لتلك الاوامر؟ هل هي الروح العدوانية لديهم؟ أم هي الخوف والرهبة؟ أو هي الانتهازية والأنانية والطمع بنيل مكاسب مادية أو معنوية من أصحاب النفوذ والسلطة؟

تشير الدراسات الى أن الناس يميلون الى الإبتعاد عن التفكير العميق حول القضايا والأمور التي ليست لها تأثير مباشر على حياتهم ويتابعون المعلومات التي تعكس معتقداتهم بدلاً من تلك التي تنافي نظرتهم الواقعية الى الامور ولتفسير الإبادة الجماعية، فأن الأفراد غالباً ما يلقون اللوم على القادة الذين يصدرون الأوامر أو ينسبونها الى الأحقاد المتأصلة لدى طرفي النزاع و يؤكد ليفين ١٩٨٩ على أن الطقوس والمعايير، سواء في مؤسسات تربوية أو دينية، أو تعاونية أو إجتماعية، تساعد على إدامة الإلتزام والإمتثال والطاعة. وغالباً ما تكون هناك عقوبات شديدة تتراوح بين النبذ والتوبيخ، إلى العنف الجسدي عند عدم الإلتزام بتلك المعاييرالتقليدية.

وهكذا يتعرض أفراد الجماعة للضغوط بغية المشاركة في أعمال الكراهية والعنف، وهم يعرفون تماماً نتائج عدم إمتثالهم.

أكدت دراسات ميلكَرام ١٩٦٥-١٩٧٥ حول الطاعة، على التأثير القوي الذي يمكن لنوع السلطة أن يضعه على سلوكنا ويقول ميلكَرام: إذا كان تعرض ملايين الناس للقتل وإعدام أعداد كبيرة من البشر يأتي حسب ما يمليه أفكار شخص ما، إلا أنه ليس بالمستطاع تنفيذها على هذا النطاق الواسع لولا خضوع أعداد كبيرة من الأشخاص للأوامر. وهنا لابد من الإشارة الى دور الثقافة والدين في المجتمع في ترسيخ الطاعة والخضوع لاسيما عندما تستغل لصالح السلطة الإستبدادية. فحسب نظرية النسب والعزو لفريتز هيدر ١٨٩٦-١٩٨٨ حول نسب وارجاع الفرد سلوكياته الى أسباب خارج عنه، لا سيطرة له عليها، حيث تلجأ الكثير من الناس الى تبرير خضوعهم وإذعانهم لأوامر الأنظمة الإستبدادية ويقومون بتنفيذ جرائم بشعة دون قناعاتهم تحت ذرائع وتبريرات شتى وينسبون ذلك الى كونهم مأمورين وعليهم تنفيذ الواجب وهناك ممن ينسبون أفعالهم واذعانهم لأوامر السلطة الى الآية القرآنية يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، على إعتبار أن السلطة هي اولي الامر الذي تشير اليها الآية وان طاعتها فرض حسب ما نصت عليه.

سيكولوجية الجماهير

يتناول جوستاف ليوبون تصوراته عن سيكولوجية الجماهير في ظل السلطة في كتاب له نشره عام ١٨٩٥بنفس العنوان، بتحليلات قيمة إثر الفوضى التي أحدثتها الثورة الفرنسية، وكان ليوبون يخاطب الحكام ويحذرهم من غضب الجماهير، ويقول أن الجماهير حينما تنتفض فان الروح الجماعية هي التي تتحكم بهم وإن الجمهور يصبح ككائن بدائي واحد، ورغم إنه يتألف من عناصر متنافرة، لكنها متراصة الصفوف من أجل أهداف آنية، وتتلاشى شخصية الفرد الواعية عند إنخراطها بين صفوف الجماهير التي تسيرها الأفكار والعواطف الآنية وتطغى عليها النزعات العدوانية. ويعتبر كتاب سيكولوجية الجماهير أول دراسة في علم النفس الاجتماعي ظهرت حول ثقافة الجماهير وسيكولوجيتها. ورسخت هذا الجانب ظهور دراسة سيكَموند فرويد بعنوان سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا في عام ١٩٢١ ويشير جاي كونين ٢٠٠٠ إلى أن هتلر كان على علم بنظرية ليوبون ودراسة فرويد والدراسات المشابهة ويقول كونين لم تكن تعبئة الجماهير من قبل النازية بإستعمال الخوف والإرهاب فحسب وإنما كانت بالآحرى بسبب الخطابات الأيديولوجية النازية المستهدفة، التي كانت تتضمن جوانب سيكولوجية. فالوعي واللاوعي للشعب الألماني تحت النازية لم يكن يمثل غير تعلق الألمان

برجل واحد وبفكرة فرويد عن الأب المثالي ,يمكن إعتبار الجماهير ككيان ذات العقل الجمعي، مثلما تتجمع بالإتفاق والتألف بين أعضاء أفرادها، تتفرق عندما تدرك بأنها تتعرض الى تهديد مباشر ويهتم قادة السلطة الإستبدادية بالعقل الجماعي نتيجة إهتمامهم بسيكولوجية الجماهير، وذلك لكي تمرر سياساتها العدائية ضد الجماهير ويسهل لها السيطرة علي تحركها وتفريق شملها قبل أن تشكل تهديداً جدياً للسلطة.

كثيراً ما يلجأ مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية الى خلق الذرائع لتبرير جرائمهم بالقاء التبعية واللوم على الجماعات المستهدفة والكثير من البحوث ركزت على فهم العلاقة بين التحامل والعنف ووضعت عدة نظريات التي خلصت الى شرح هذه العلاقة ومن أقدم المحاولات لفهم تلك العلاقة هي نظرية تعرف بكبش الفداء لرينيه كيرارد التي تفترض أنه عندما تشعر الناس بالإحباط، كما في حالة تدهور الإقتصاد فإنهم يتوجهون بالقاء اللوم على جماعات مهمشة في داخل المجتمع وعلى أساس ذلك فأن الموجودين في مواقع السلطة العليا يستخدمون الأساليب النفسية-الإجتماعية مع الجماهير على نطاق واسع لإحكام السيطرة على السلطة أو يقومون بإنشاء مؤسسات حكومية جديدة ذات برامج سياسية خاصة ويحكمون السيطرة على قنوات الدعاية والإعلام وكمثال على تلك الممارسات التي تقوم بها السلطات في تمرير إرتكاب جرائم الإبادة الجماعية، قامت الطائرات العراقية بقصف مدينة حلبجة بالغازات

السامة، ولجأ النظام العراقي مستخدما كافة الوسائل وخاصة الإعلامية منها،الى اظهار قوات البشمركة المناوئة للنظام كعملاء للأجنبي وإتهامهم بجلب القوات الإيرانية لإحتلال المدينة وعلى أن القوات العراقية قامت بالرد على هجماتهم لإسترداد المدينة دفاعاً عن الوطن وإنتقاماً منهم على عمالتهم، دون أن تشير الى إستعمال الأسلحة الكيمياوية المحرّمة دولياً وتحت نفس الذرائع قامت القوات العراقية بإرتكاب جرائم الإبادة الجماعية في حملات الأنفال عام ١٩٨٨وهكذا وعند إستعمال العنف الجماعي أو القيام بالأبادة الجماعية، تكتمل عملية الإقصاء بإستبعاد الضحايا من دائرة الأخلاق، فلا ينظر اليهم كبشر منذ تلك اللحظة، وهم ليسوا الا ديدان ضارة لابد من إفناءهم أو أعضاء متفسخة يجب بترها.

العامل المهم الآخر هو تأثير الإجماع الخاطئ عندما يعتقد الناس بشكل خاطئ أن إتجاهاتهم أو إعتقاداتهم سيتم الإجماع عليها من قبل أغلبية الناس الآخرين طبقاً لـ باندورا، إن مثل هذه الإعتقادات الجماعية تعطي تبريراً إجتماعياً للتحرر الأخلاقي، وبالتالي تخدم كبوادر للعنف الجماعي ومن خلال نظريته يناقش باندورا دور كل الأطراف: الضحايا، مرتكبي الجرائم المساهمون فيها، والناس المتفرجون وقد أكد أن علاج الضحايا، أمر أساسي للتقليل من إحتمال تحوّلهم الى مرتكبي جرائم وغالباً ما يشار الى نظريته بنظرية الحافز الثقافي الإجتماعي لأنها تركّز على تعدد

التأثيرات المتفاعلة التي تؤدي الى إزدياد حدة عنف المجموعة وتركز النظرية على التغييرات لدى الفرد والمجموعة، وكيفية تفاعل العوامل المؤثرة.

قطعت البشرية شوطاً كبيراً من التقدم والتطور في كل المجالات فالتقدم الهائل الذي يشهده العالم لاسيما التقدم التكنولوجي وسرعة تبادل المعلومات التي شهدت قفزات كبيرة ساهمت في التطور في كل الحقول الأخرى أمر في غاية الأهمية لتحقيق الرفاهية للإنسان والعيش بسلام، خاصة في تحسين مستوياته الإقتصادية والإجتماعية والصحية والتعليمية ولكن هذا التقدم شمل نواحي خطيرة أخرى قد تكون لها آثاراً كارثية على الإنسانية إذا ما لم يتم إحكام السيطرة عليهافقد تطورت الأسلحة والمعدات الحربية بشكل مذهل فالقدرة التدميرية للصواريخ والقنابل زادت عشرات الأضعاف وأصبحت إنتاج الأسلحة النووية تشكل خطراً كبيراً على السلام العالمي ولم يعد إنتاجها يقتصر على الدول الصناعية الكبرى، بل دخلت دول أخرى في مضمار إنتاجها وإجراء التجارب عليها وكذلك في إنشاء المفاعلات النووية، كالهند وباكستان وكوريا الشمالية وإيران فيما لازال هناك بؤر للنزاعات والصراعات السياسية والعرقية كما إن المنافسة الاقتصادية بين الدول على أشدها، وهناك قادة وزعماء وحكام دكتاتوريين وأنظمة شمولية تتحكم في مصير الشعوب،ويسيطر عليهم حب الذات والنزوات والميول العدوانية

ولايهمهم مصير الملايين من الناس واذا ما إحتدمت الصراعات فأن الأمر سيكون في غاية الخطورة، ولبشرية ستواجه كوارث حقيقية كبرى لايمكن التكهن بنتائجها.

يتطلب الأمر تكثيف الجهود في القيام بالأبحاث والدراسات الخاصة بالجوانب السيكولوجية المتعددة التي تلعب أدوراً كبيرة في التشخيص، والمساهمة في التقليل من حدة الصراعات وضبط الإنفعالات والتحكم في الدوافع إضافة الى العمل على نشر التوعية العامة على مستوى عالمي بواسطة القنوات الإعلامية كافة، وضرورة إدخال برامج خاصة في المناهج التعليمية على جميع المستويات لتساهم في زيادة الوعي ونشر روح التسامح ونبذ الأحقاد والعنف، والدعوة إلى اللجوء إلى العقل والحكمة في تحويل مجرى الصراع عند نشوب الخلافات والنزاعات وكذلك فإن خلق نظام عالمي جديد وإعطاء المزيد من الصلاحيات للمؤسسات الدولية المهتمة بفض النزاعات الدولية وإخراجها من دائرة هيمنة الدول الكبرى أمر في غاية الأهمية لكي لا تواجه الشعوب مزيد من الحروب والمآسي والكوارث الإنسانية، وبهدف قطع دابر الممارسات التي سينجم عنها إبادة جماعية وقتل الأبرياء أثناء نشوب الصراعات.